المعجزة القرآنية في فكر الجابري: دراسة تحليلية

جمال الدين عبد العزيز شريف *

الملخص

يتناول هذا البحث تحليلاً نقدياً لفكر محمد عابد الجابري من خلال دراسته لـ"المعجزات القرآنية"؛ وهي المعجزات التي وقعت لتدل على صدق ﷺ في نبوته؛ نحو معجزة "القرآن" ومعجزاته الحسية التي ذكرها القرآن؛ وهي المعجزات التي تناولها الجابري دون سواها من المعجزات التي جاءت في السنة. يتكون البحث من قسمين: تناول الأول فكر الجابري حول اعتبار القرآن معجزة للنبي؛ إذ يقر بالإعجاز اللفظي "الصوتي" للقرآن دون سواه من أنواع الإعجاز الأخرى المتعلّقة بالمعاني؛ لكنه ينكر دلالة أمية النبي على الإعجاز. وتناول القسم الثاني معجزات ﷺ الحسية التي ذُكرت في القرآن كانشقاق القمر والإسراء والمعراج، فرأي أن هذه المعجزات الحسية هي أحداث طبيعية غير خارقة للعادة وغير مخالفة للقوانين الكونية.

الكلمات المفتاحية: المعجزة القرآنية، محمد عابد الجابري، القرآن، النبي محمد، الإعجاز اللفظي، المعجزات الحسية.

The Qur'anic Miracle in Al-Jabiri's Thought: A Critical Analytical Study

Abstract

This paper critically analyzes the thought of Muhammad Abid al-Jabiri in his study of the miracles of Prophet Muhammad (pbuh); i.e, the miracle of Qur'an and sensory miracles mentioned in the Qur'an. The study has two sections: the first deals with the Qur'an as Prophet Muhammad's miracle that validates his Prophethood, which al-Jabiri endorses as 'phonic' or 'verbal' miracle, while disregarding other miracles related to meanings, thereby denying the indication of the Prophet's illiteracy.

The second section discusses sensory miracles that are mentioned in the Qur'an, such as the eclipse of the moon and *Al Isra wa Al Mi'raj* (The Night Journey and Ascension). Al-Jabiri considers such sensory miracles as ordinary natural events that are not contrary to the cosmic laws.

Keywords: Qur'anic miracle, Muhammad Abid al-Jabiri, Qur'an, Prophet Muhammad, verbal miracle, sensory miracles.

* دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، أستاذ مشارك بجامعة الجزيرة/ السودان. البريد الإلكتروني: jamalshari8@gmail.com

تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٠١٠/٦/٣٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١١/١/١٢م.

مقدمة:

اتخذ أصحاب القراءات الحداثية للقرآن "العقلانية" مرتكزاً من مرتكزاتهم التي استندوا إليها، وبناء على ذلك نادوا بضرورة إعادة قراءة التراث الإسلامي ونقده، من خلال إبراز النزعة العقلانية فيه من جانب، ومحو اللامعقول -عندهم- عن بنيته[١] من جانب آخر. وقد مثلّت "معجزة القرآن"[٢] و"المعجزة" التي ذُكرت في القرآن تحدياً كبيراً لـ"عقلانيتهم" التي تزاورت عن قبول الغيبيات واستنكفت عن الاقتناع بالخوارق؛ ولهذا كانت المعجزة محوراً من محاورهم التي أولوها اهتمامهم، وصرفوا إليها عنايتهم، وبذلوا فيها جهودهم، فذهبوا إلى أن هذه المعجزات ما هي إلا شواهد تاريخية ولم تعد لها الدلالات ذاتها التي كان يُقال بها في الماضي، وإنما يجب إعادة تفسيرها في ضوء التصورات الحديثة.

وفي هذا المضمار ألّف جورج طرابيشي كتابه "المعجزة أو سبات العقل في الإسلام"، وعقد حسن حنفي في كتابه "من العقيدة إلى الثورة" فصلاً بعنوان "استحالة المعجزة"، وذهب حنفي في ذلك إلى أن الماضي إنما كان زمن نشر الرسالة والردّ على منكريها، وليس الأمر كذلك الآن، وإنما التحدي في الوقت الحاضر — عنده- هو تحويل الوحي إلى "علم" يقوم على العقل ويستند على الطبيعة، وذهب إلى أن المعجزات إنما هي قدح في العقل وقدح في الطبيعة وقوانينها التي لا يمكن أن تخرق بفعل أحد، أما ما ذُكر من معجزات وخوارق نحو انشقاق القمر انشقاقاً حقيقاً وغيره فهو — عنده- وسيلة من

---

[١] الجابري، محمد عابد. **بنية العقل العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٧، ٢٠٠٤م، ص٥٢.

[٢] المقصود بـ"المعجزة القرآنية" -في هذا البحث- القرآن نفسه بوصفه معجزة من جهة، والمعجزات التي وقعت للنبي ﷺ وذكرها القرآن من جهة أخرى، والحق أنه ليست كل معجزة إعجازاً، وإنما كل إعجاز معجزة؛ لأن الإعجاز هو المعجزة المقرونة بالتحدي ووقعت بوصفها دليلاً على النبوة "إعجاز القرآن أو معجزة القرآن" أما المعجزات التي لا تدخل في إطار الإعجاز فهي التي وقعت بوصفها دليلاً على النبوة دون أن تقترن بالتحدي، كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر. انظر:

- زرزور، عدنان محمد. "بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن "نظرات نقدية""، قطر: جامعة قطر، **مجلة كلية الشريعة**، ع١٧، ١٩٩٩م، ص٢٩-٤٠. وقد اقتصر البحث على تلك المعجزات الثلاث، بالإضافة إلى إعجاز القرآن؛ لأن الجابري الذي يراد نقد طرحه لم يذكر غيرها.

وسائل التخييل، وطريقة من طرق الإقناع في الخيال الشعبي لدى القبائل الصحراوية التي تجهل قوانين العلم وسنن الطبيعة.[٣]

وذهب عبد المجيد الشرفي إلى أن هذه المعجزات والخوارق قد ارتبطت بالأسطورة والمتخيّل الإسلامي الذي لا يرى حرجاً في إلغاء قانون السببية.[٤] وذهب محمد أركون إلى أن هذه المعطيات الخارقة للطبيعة إنما هي تعابير محوَّرة عن مطامح ورؤى حقيقية يمكن فقط للتحليل التاريخي –لعلم الاجتماع، وعلم النفس اللغوي– أن يعيها ويكشفها؛[٥] ولأجل هذا ذهب كثير منهم إلى تأويل "المعجزة" تأويلاً مجازياً.[٦]

أما محمد عابد الجابري فهو وإن سلك مسلك "العقلنة"، إلا أنه لم ينف المعجزات الحسية التي ذُكرت في القرآن نفياً مطلقاً بوصفها أساطير من إنتاج المخيال الإسلامي، ولم يَمِل إلى القول بالمجاز فيها، وإنما أوّلها تأويلاً "طبيعياً" بعيداً عن المجاز، وذكر أن من حقه النظر في أقوال العلماء داخل التراث، واختيار ما لا يتعارض مع مبادئ العقل ومعطيات العلم من هذه الآراء،[٧] وذلك لتكون هذه المعجزات– عنده– في نهاية المطاف حوادث طبيعية غير خارقة للعادة وغير معجزة أيضاً. ويفرّق الجابري بين المعجزة التي تقع للنبي ﷺ، والتي تقع لغيره من الأنبياء السابقين؛ فالمعجزة التي تقع للنبي ﷺ لا علاقة لها (بخرق العادة) وإبطال نواميس الكون وسننه. وقد بنى الجابري رأيه في هذا التفريق على أن أسلوب الإقناع في القرآن قد بُني وفق معطيات العقل، أما أسلوب التوراة والإنجيل فقد ارتكز على خرق ما جرت به العادة من سنن طبيعية؛ ولأجل ذلك أوّل الجابري ما ذُكر في القرآن من معجزات وقعت للنبي ﷺ وجاءت خلافاً للعادة الطبيعية تأويلاً يخرجها من

---

[٣] حنفي، حسن. **من العقيدة إلى الثورة**، بيروت: دار التنوير، ط١، ١٩٨٨م، ج٤، ص٧٥، ٨٦، ج٦، ص١٤٩–١٥٠.

[٤] تقديم عبد المجيد الشرفي على كتاب:
– الجمل، بسام. **أسباب النزول**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط١، ٢٠٠٥م، ص٩.

[٥] أركون، محمد. **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، ترجمة: هاشم صالح، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٦م، ص٢٩٩.

[٦] الجمل. **أسباب النزول**، مرجع سابق، ص٣٩٥–٣٩٧.

[٧] الجابري، محمد عابد. **مدخل إلى القرآن الكريم "في التعريف بالقرآن"**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٦م، ج١، ص٨٨.

إطار (خرق العادة) والمس بقوانين الكون، ولم يثبت الجابري للنبي ﷺ إلا معجزة واحدة هي القرآن؛ وإن كان له في وجوه هذا الإعجاز رأي خاص كما سيأتي.

أولاً: إعجاز القرآن عند الجابري

تفرَّد النبي ﷺ عن جميع الأنبياء والمرسلين بمعجزة باقية على وجه الدهر، صحيحة المعنى، عالية البلاغة، حسنة اللفظ، جيدة السبك والتركيب، وهي معجزة القرآن. وبالرغم من اختلاف التعبير وتباين الألفاظ في تحديد وجوه الإعجاز القرآني عند العلماء؛ إلا أنَّ هذه العبارات جميعها تحصر هذا الإعجاز في ثلاثة وجوه، الوجه الأول: صحة المعاني؛ أي مطابقة هذه المعاني للواقع في الأخبار وتحقيقها للمصالح في الأحكام. والوجه الثاني هو اللفظ وحلاوته؛ أي حلاوة الصوت القرآني في الآذان وبهجته في النفوس وقوة أثره فيها. أما الوجه الثالث فهو جودة النظم؛ أي قوة الارتباط وحسن السبك ودقة التراكيب. وهذا الوجه الأخير شديد الارتباط بالوجهين السابقين. ولكن هذه الوجوه عند الجابري ليست على درجة واحدة، فقد أثبت بعضها ونفى الآخر؛ وتفصيل ذلك في ما يأتي من فقرات.

١. الإعجاز اللفظي عند الجابري:

القرآن عند الجابري معجز، بل هو المعجزة الوحيدة لمحمد ﷺ عنده؛ لأن المشركين قد طالبوا النبي ﷺ بمعجزات، وقد ردّ القرآن عليهم مراراً وتكراراً بأنه هو نفسه المعجزة. والقرآن الكريم عند الجابري معجز بالنظم المتعلّق باللفظ (الصوت) لا المعنى، ولأجل ذلك لا يقبل القرآن الترجمة إلى لغات أجنبية ولا إلى العربية نفسها –عند الجابري– إلا على سبيل ترجمة المعاني؛ أي التفسير؛ ولهذا فإنَّ المعجز فيه ليس معانيه وإنما ألفاظه التي بها نزل. ولما اتهمت قريش النبي ﷺ بالنقل من أهل الكتاب[٨] ردّ القرآن عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣) وهذه الألفاظ العربية التي نزل بها القرآن لا يمكن أخذها عن الأعاجم بحال. وقد ذكر

[٨] جبر وعداس وغيرهما.

الجابري أن هنالك ثلاث لحظات للقرآن في مسار الكون والتكوين هي: الترتيل (الإعجاز)، والذِّكر، والكتاب. ويُلاحظ أن الجابري قد علّق الإعجاز بلحظة الترتيل دون غيرها، والقرآن عنده قد نزل مرتّلاً، قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) يقول الجابري: "وهذا يدل على أن ترتيل القرآن جزء من القرآن نفسه؛ بمعنى: أن مفعول الخطاب القرآني في التأثير في السامعين لا يرجع إلى معانيه، بل يرجع إلى طريقة قراءته، ولعل هذا الجانب هو الذي يعطي للفظ "القرآن" معناه الاصطلاحي الذي يجعل منه اسم علم، وبالتالي يفصله عن مجرد "القراءة" كمصدر لفعل قرأ."[٩] وقد حاول الجابري تأكيد رأيه بعدد من الأدلة؛ فاستدل بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦- ١٨) وذهب إلى أن هذه الآية صريحة في أن طريقة قراءة القرآن من الله، وأن لفظ القرآن مفصول من مصدر قرأ. وذهب إلى أن قراءة القرآن على طريقة معينة -وهي الطريقة المسماة بالترتيل والتجويد- هي أهم وأبلغ في مجال التأثير على المستمع من قراءته قراءة عادية، ومن هذه الجهة فليس هناك من لفظ يعبر عن هذه الخاصية غير لفظ "القرآن". وذكر أن الإعجاز يتعلّق بمفهوم "القرآن" في ذاته لا بـ"الذكر" ولا بـ"الكتاب"؛ إذ إن "الذكر" عنده هو: العبرة المستخلصة من النظر في الأشياء خارج الذات، مثل نظام الكون وأخبار الأقوام الماضية وقصص الأنبياء؛ [أي الحديث عن] المعنى، أما "القرآن" فهو ما تتركه التلاوة من أثر داخل ذات القارئ أو المستمع؛ [أي الحديث عن] اللفظ، والقرآن هو الذي يحمل الذكر إلى مشاهد صوتية منغّمة، تقرّر وجوداً يحمل برهانه الذي يغني عن البرهان العقلي، وهذا التأثير العميق في القلوب لا غيره هو إعجاز القرآن عنده. ولما كان الإعجاز يتعلّق عند الجابري بالصوت والترتيل، وما يتصل به من تجويد ومخارج للحروف وغيرها، فقد أدخل الفواصل أيضاً (بوصفها شكلاً صوتياً) كخاصية يباين بها القرآن سائر الكلام. وقد ذكر الجابري عدة وقائع تدل على تأثير القرآن في العرب فاستدلّ بقصة أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق وقصة الوليد بن المغيرة، ليخلص إلى أن إعجاز القرآن في تأثيره على المستمعين، كامنٌ في الترتيل لا غيره.[١٠]

---

[٩] المرجع السابق، ج١، ص١٨٢.

[١٠] المرجع السابق، ج١، ص١٦٦، ١٦٧، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤. انظر أيضاً:

والحق أن الإعجاز الصوتي وجه من وجوه الإعجاز التي أشار إليها العلماء وتناولوها بالدراسة؛ ولم يكن الجابري مكتشفها؛ يقول ابن قيم الجوزية: "ومنهم من قال: إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة، وما يلحقها من الخشية، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، أو عالمة بما تحويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة."[١١]

إلا أن الجابري قد سلك في إثبات هذا النوع من الإعجاز مسلكاً عجيباً، وكانت استدلالاته في ذلك غريبة؛ فاستدل بقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) على أن القرآن قد نزل مرتّلاً؛ أي مقروءاً بطريقة معينة، وهذا الاستدلال فيه نظر؛ إذ يتضح المعنى عند النظر إلى سياق الآية كله؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) فقوله: (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) يعني: فرقناه تفريقاً؛ ونزّلناه شيئاً بعد شيء،[١٢] وهذا بخلاف ما ذهب إليه الجابري، أما استدلاله بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦– ١٨) على أن طريقة قراءة القرآن من الله، فهذا الاستدلال أيضاً فيه نظر؛ إذ إن قوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) يعني: إن علينا جمعه وضمه في صدرك، وكلمة "قرآن" في أصلها تعني الضم والجمع؛ قال الشاعر:

ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أي لم تحمل ولم تضم في رحمها جنيناً، وكل شيء جمعته فقد قرأته، والقراءة هي ضم الحروف إلى بعضها؛ تقول: قرأته قراءة وقرآناً، فكلمة "قرآن" تدل على الجمع والضم عند العلماء،[١٣] ولكن الجابري لا يرجع إلى الأصول اللغوية للكلمات. ولعل أكبر إشكال في

– الجابري، محمد عابد. **فهم القرآن الحكيم**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٩م، ج١، ص١٦٧، ١٧١، ١٨٢، ج٢، ص٣٦٦.

[١١] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي. **الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن**، بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت، ص٣٤١.

[١٢] القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج١٣، ص٢٩.

[١٣] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط١، د.ت، ج١، ص١٢٨.

هذا الإعجاز اللفظي –عند الجابري– هو قصره للإعجاز في هذا الوجه دون سواه، فالإعجاز اللفظي وجه من وجوه الإعجاز وليس هو الإعجاز كله.

٢. الإعجاز المعنوي عند الجابري:

لما جعل الجابريُّ الإعجاز في (الترتيل) وفي (القرآن) مفهوماً خاصاً عنده يتعلّق بالترتيل أيضاً، فقد أنكر كل ما يتعلّق بالمعنى من إعجاز؛ فلا إعجاز، –عنده– في القصص التي جاء بها القرآن، ولا إعجاز في ما جاء به من علوم ومعارف.

ذكر العلماء أن إخبار القرآن بالغيوب شكل من أشكال إعجازه المتعلّقة بالمعنى، وهو من أبرز أشكال الإعجاز عندهم. وقد كان هذا الوجه مسلّمة من مسلّمات العلماء الذين درسوا الإعجاز، ولم يتم التنازع فيه كما تمّ في غيره من وجوه الإعجاز الأخرى. إلا أن الجابري قد ذهب إلى أن (الإعجاز) في أول أمره كان مقتصراً على التأثير في القلوب بترتيله، ولكن لما واجه العلماءُ الفرق المناهضة للإسلام، وسّعوا مفهوم الإعجاز ليشمل المعاني وما يتعلّق بها من إخبار بالغيب،[١٤] وذلك كما فعل النظّام الذي واجه المانوية الذين طعنوا في القرآن.[١٥]

والحق أن الإعجاز المتعلّق بالمعاني وما يتصل بها من إخبار بالغيب هو أظهر وجوه الإعجاز، ولم يكن غائباً على العلماء، ولا كان أمراً استحدثوه استجابة لمؤثرات فكرية معينة؛ بل كان أمراً بدهيّاً موجوداً في القرآن نفسه، وغاية ما في هذا الأمر أن إبراهيم بن سيار النظّام القائل بـ"نظرية الصِّرفة"، قد مال إليه دون غيره رافضاً للنظم وغيره من وجوه الإعجاز المتعلّق بالبلاغة والفصاحة. والنظّام لم يبتكر النظر في هذا الجانب، ولكنه اقتصر عليه بناء على مؤثرات فكرية معينة، فالاقتصار على هذا الجانب المعروف المشهور من الإعجاز –وليس الانتباه إليه– هو الذي كان نتيجة هذه المؤثرات. وقد ركّز الجابري على مناظرات النظّام للمانوية، ولست أدري لماذا فعل ذلك، بالرغم من أنه لم يثبت أن

[١٤] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص١٧٠.
[١٥] المرجع السابق، ج١، ص١٧٠–١٨٥.

المانوية قد هاجموا إعجاز القرآن، وإنما كانوا فرقة من الفرق التي ناظرها النظّام في عقائدها لا في إعجاز القرآن

والإخبار بالغيب يتعلّق بالأخبار والقصص الماضية والمستقبلية التي حكاها القرآن، ووقعت طبق ما أخبر، ولم يكن النبي ﷺ ولا قومه يعرفونها، إلا أن الجابري قد ذهب إلى أن القصص الماضية في القرآن إنما كانت نوعاً من ضرب المثل، ولا يجب السؤال عن حقيقتها أو صحة وقوعها، ولا معنى لطرح الحقيقة التاريخية في ذلك؛ إذ إن المقصود هو المغزى، والصدق في ذلك إنما يرجع إلى مخيال السامع.[١٦]

وإذا كان الجابري يقصد بضرب المثل في القصص، أن هذه القصص كانت تتنزّل على النبي ﷺ عندما يتعرّض لحالات مشابهة لما وقع في هذه القصص، فهذا الجانب لا إشكال فيه. أما الإشكال الكبير فهو في عزل هذه القصص عن الحقيقة والواقع. فهذه القصص هي حقائق قد حدثت، ووقائع قد كانت وبرزت للوجود، وقد قصّ الله تعالى لنبيه ﷺ هذه الأنباء بالحقّ كما وقعت. صحيح أن الغرض منها كان هو استخلاص العِبَر والدروس؛ إذ جاءت لمقاصد مخصوصة وغايات معينة وأهداف محددة، ولكنها لم تكن ضرباً للأمثال يرجع الصدق فيها إلى مخيال السامع، بل الصدق فيها من حيث مطابقتها للواقع.

والقصص القرآنية عند الجابري ليست جديدة على الناس عندما حكاها القرآن؛ إذ إنها كانت داخلة في معهود العرب الثقافي،[١٧] وهم يعرفونها من وصف النسّابين، ويرون رأي العين ما تبقى من آثار الأمم الماضية؛[١٨] فأمر ثمود كان عندهم معروفاً مشهوراً، وآثارهم في بلادهم يمرّون عليها. وأما فرعون وداود وسليمان —وبالرغم من أنهم خارج جزيرتهم– إلا أنهم كان يسمعون أمر فرعون من جيرانهم أهل الكتاب،[١٩] ويسمعون قصة داود وسليمان؛ إذ امتد ملكهما إلى أراضيهم، وكانت قصة سبأ وانهيار سد العرم حاضرة

[١٦] المرجع السابق، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩.
[١٧] المرجع السابق، ج١، ص٢٥٩.
[١٨] المرجع السابق، ج١، ص٤٢١.
[١٩] المرجع السابق، ج١، ص٢٦٤.

في مخايلهم؛[٢٠] ولذلك فإن القرآن لم يأت بجديد في ذلك على العرب إلا طريقة في عرضه وتلاوته لهذه القصص على شاكلة معينة.

والحق أن ما ذكره الجابري فيه نظر؛ إذ إن العرب لم يكونوا يعرفون القصص الماضية، ولم يكن لديهم من كتاب يدركون به هذه القصص، وقد سمى الله تعالى هذه القصص بـ"أنباء الغيب" كما قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩)

وقد ذهب الجابري إلى أن أهل الكتاب أيضاً كانوا يعرفون القصص التي وردت في القرآن، ولهذا فإن القرآن لا يتميّز عن التوراة والإنجيل لا في مصدره ولا في محتواه،[٢١] وإنما وجه التميّز عنهما هو التعبير عن هذه القصص بصورة معينة غير قابلة للتقليد فحسب.[٢٢] وعدم القدرة على التقليد –عند الجابري– ليس في القصص ومعانيها؛ وإنما في الوجه الوحيد للإعجاز عنده وهو الترتيل والتلاوة.

وما ذهب إليه الجابري من مساواة بين القرآن والتوراة والإنجيل في هذه القصص ليس صحيحاً؛ إذ إن القرآن يتميّز عن التوراة والإنجيل بأمور كثيرة تتعلّق بالمعاني؛ إذ انفرد بقصص لم تذكرها التوراة والإنجيل، ثم إن القصص التي وافق فيها القرآن التوراة والإنجيل قد اختلفت تفاصيلها في كثير من الأمور، ولما كانت التوراة والإنجيل قد حرّفتا فقد جاءتا بأمور شنيعة في قصصهما نفاها القرآن. ولهذا فإن القرآن لا يتميّز عن التوراة والإنجيل في لفظه وفي فصاحته وبلاغته ونظمه فحسب؛ بل يتميّز عنهما حتى في معانيه؛ من حيث صدق أخباره وعدل أحكامه.

٣. الإعجاز العلمي عند الجابري:

إن علاقة القرآن بالعلوم –على اختلاف أنواعها– علاقة وثيقة، وقيام الإعجاز العلمي تأكيد لهذه العلاقة، فقد يُنعى على الإعجاز العلمي منهجه في التعامل مع قضايا

[٢٠] المرجع السابق، ج١، ص٢٢١.
[٢١] المرجع السابق، ج١، ص١٩٤.
[٢٢] المرجع السابق، ج١، ص٤٢٤.

العلوم في القرآن، وقد يُنعى عليه بعض معالجاته لعدم التزامها بالضوابط والشروط اللازمة عند التعامل مع النص القرآني، ولكن ذلك كله لا ينفي علاقة القرآن بالعلوم بأي حال من الأحوال. صحيح أنه قد يُختلف في شكل هذه العلاقة، ولكنها علاقة قائمة ثابتة لا يمكن إنكارها، إلا أن الجابري قد أتى بما حدّده العلماء للإعجاز العلمي من ضوابط وشروط، وجعلها سبباً مباشراً لنفي هذا النوع من الإعجاز جملة، بل جعل ذلك سبباً لنفي علاقة العلوم بالقرآن ابتداء، وقد جعل الجابري ما ذكره الشاطبي من أن الشريعة أمية[٢٣] مقدّمة لجعل الأخبار القرآنية متصفة أيضاً بصفة (الأمية)، ولهذا ذهب إلى أنه يجب الالتزام بمعهود العرب وعدم تحميل القرآن من المعاني ما لا يتناسب مع كون العرب أميين؛[٢٤] ولهذا لا يمكن إطلاقاً –عنده– تلمس ما يخرج عن معهود العرب من العلوم والمعارف، فالقرآن عنده قد خاطب العرب بطريقتهم البيانية وعلى معهودهم في المعارف؛ فلفت أنظارهم إلى الأمور المعروفة بصورة ظاهرة؛ فقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ٢٠) وهم يرونها كذلك وهي في حقيقتها ليست كما يرونها، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس: ٣٨) وهم يرونها كذلك، وهذا وصف للمشاهدة الظاهرة للأشياء، وهي تفي –عنده– بالغرض الذي أراده القرآن؛ وهو الاعتبار والاتعاظ.[٢٥]

وقد ذهب الجابري إلى أنه إذا كانت معرفة لغة العرب ضرورية لفهم القرآن، فكذلك ينبغي أن يكون فهمه ضمن معهودهم؛ أي ما يشكّل قوام حياتهم الروحية والفكرية والاجتماعية؛ إذ إن القرآن قد خاطب العرب ليفهموه، وتبعاً لذلك لا بدّ أن يكون بلغتهم وفي إطار معهودهم الاجتماعي والثقافي حتى يفهموه.[٢٦]

والحق أنه لا توجد علاقة لازمة بين لسان العرب والعلوم والمعارف التي جاء بها القرآن، فإذا جاء القرآن بلسانهم فلا يعني ذلك إطلاقاً أنه أتى بما يعرفون من علوم ومعارف، وإلا لما أصبح لمجيئه من معنى. أما قول الإمام الشاطبي بـ"أمية الشريعة" الذي

---

[٢٣] الشاطبي، إبراهيم بن موسى. **الموافقات**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، الخبر: دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٩٨.

[٢٤] الجابري. **بنية العقل العربي**، مرجع سابق، ص٥٤٥.

[25] http://www.aljabriabed.net/index.htm

[٢٦] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧.

استدلّ به الجابري، فقد اختلف العلماء مع الشاطبي فيه اختلافاً كبيراً، ولم يجد الباحث أحداً من العلماء نقل قول الشاطبي إلا ليعترض عليه.

أما استدلال الجابري بقوله تعالى: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) على أن القرآن قد اقتصر على معهود العرب في علومهم، فاستدلال غير سائغ إطلاقاً؛ لأن المعنى المذكور في سياق هذه الآية مقصود في ذاته؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) فهذا الوصف للأرض -بحسب السياق والقرائن- مرتبط بنظرهم؛ إذ أمرهم بالنظر للاعتبار بهذه النعم، وهذا ليس وصفاً كلياً للأرض؛ والمعنى: انظروا كيف سطح الله هذه الأرض الواسعة لتتمكنوا من العيش فيها والزراعة والبناء عليها، فما ظنّكم لو كانت هذه الأرض وعرة غير مسطحة، وقد جاء تسطيح الأرض هنا مقابلاً لوعورتها وصعوبة التعامل مع تضاريسها، وليس مقابلاً لتكويرها بصورة كلية، ولهذا فليس مناسباً في هذا السياق- والمقام مقام تفكّر في هذه النعم - أن توصف الحقيقة الكونية الكبرى في التكوير، وهذه الآية كقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ (البقرة:٢٢) وكقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه: ٥٣) وكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥) وكل هذه الآيات قد جاءت في إطار التفكر في نعم الله تعالى.

أما الحقيقة الكونية الكلية فقد وُصفت في آيات وسياقات ومقامات أخرى غير هذه، منها قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥) ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة أيضاً. وتسطيح الأرض في سياق تلك الآية المعنية بالدراسة كـ"مد" الأرض في سياق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ (الرعد: ٣)؛ إذ إن كليهما في سياق النظر إلى النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وليس مناسباً في هذين السياقين غير الوصف الجزئي الذي يحسّه المنعَم عليه بحواسه المجردة؛ ومدّ الأرض في الآية السابقة غير مدّها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (الانشقاق: ٣) الذي يدلّ على أن

الأرض الآن –في حقيقتها الكونية الكبرى– غير ممدودة. وبذلك يتضح أن السياق وما فيه من قرائن هو الذي يحدد المعنى المقصود، سواء أكان هذا المعنى حقيقة كونية كلية أم حقيقة كونية نسبية يراها المخاطب.

أما استدلال الجابري بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ (يس: ٣٨) على أن القرآن قد اقتصر على معهود العرب في علومهم، فاستدلال ليس بالصحيح؛ إذ إن هذه الآية ليست كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ (الغاشية: ٢٠) وقد استدلّ الجابري بهما في أمر واحد وكأنهما جاءتا في مقام واحد، لكن هذه الآية التي تصف الشمس تتناول قدرة الله تعالى وعجائب صنعه، وأنه تعالى قد انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرَك به؛[٢٧] ولهذا وصفت الآية الحقيقة الكونية الكلية. ويُفهم من كلام الجابري أنه جاء بهذا الآية ليدلّل على أن الشمس–في حقيقتها الكونية– ثابتة بخلاف ما يراها الناس، وقد كان هذا الاعتقاد من المسائل العقلية الظنية، ثم انقلب هذا الظن إلى ظن آخر، وهو أن الشمس ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها. ولكن تبين أخيراً أنها ليست مستقرّة في مكانها، وإنما هي تجرى فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل.

٤. دلالة أمية النبي (ﷺ) على الإعجاز:

ذهب الجابري في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم) الذي أراد به تقديم القرآن للقارئ العالمي –كما ذكر[٢٨]– إلى أنه: "لا يليق بنا أن نتصوّر أن من كمال الإنسان الذي يختاره الله للنبوة أن يكون لا يعرف القراءة والكتابة،"[٢٩] ولأجل ذلك حاول الجابري نفي الأمية (عدم القراءة والكتابة) عن النبي ﷺ، وقد أطال الكلام كثيراً في ذلك، ثم خلص إلى أنه لا علاقة بين صفة "الأمية" هذه و"المعجزة".

وقد حاول الجابري الإتيان بكافة الأدلة التي تثبت دعواه في نفي "الأمية" عن النبي ﷺ؛ فذهب إلى أن النبي ﷺ حين أمره جبريل بالقراءة في بدء الوحي قال –كما في رواية

[٢٧] القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٥، ص٢٦.
[٢٨] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص١٤.
[٢٩] المرجع السابق، ج١، ص٨٠.

ابن إسحاق—: (ماذا أقرأ؟) بالصيغة الاستفهامية، مما يدلّ على أنه كان يعرف القراءة، في حين أن رواية البخاري: (ما أنا بقارئ)، ولأجل ذلك ذهب الجابري إلى حمل رواية البخاري على رواية ابن إسحاق؛ فذكر أنه من الممكن أن تكون هذه العبارة الواردة في رواية البخاري دالة على الاستفهام أيضاً لا النفي.[٣٠] كما استدلّ الجابري بقول النبي ﷺ: "فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب" وقوله: "هببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً."[٣١]

وقد ذهب الجابري إلى أن القراءة والكتابة كانت منتشرة بين العرب؛ فالخلفاء الأربعة كانوا يقرأون ويكتبون، وعبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ المباشر كان يقرأ ويكتب، وقصي بن كلاب جدّه الأعلى كان يقرأ ويكتب، ثم إن النبي ﷺ نفسه كان تاجراً والتجارة تحتاج إلى القراءة والكتابة والمعرفة بالحساب،[٣٢] كما أن النبي ﷺ —حسب ما ذكر الجابري– قد محا لفظ (رسول الله) عن اسمه في صلح الحديبية حينما رفض علي كرم الله وجهه محوه،[٣٣] ثم أورد الجابري قول من قالوا إنه ﷺ قد تعلّم القراءة والكتابة بعد النبوة، بعد أن كان قبلها أمياً، فذكر قول الألوسي: "ومعجزة الكتابة بعد أميته لا تنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى، لكونها من غير تعليم، ولا يخفي أن قوله ﷺ (إنَّا أمَّة أمِّيَّة) ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام."[٣٤] وذكر الجابري أن الإمام القرطبي قد ردّ على قول من تشدّد في إنكار قول من قالوا إنَّ النبي ﷺ قد تعلّم القراءة والكتابة، يقول الجابري: "وفي هذا الاتجاه علّق القرطبي على رأي من ينكر القول بأن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ناقلاً كلام شيخه."[٣٥] وذهب الجابري إلى أن لفظ (الأمي) الذي وُصف به النبي ﷺ ولفظ (الأميين) الذي وُصف به قومه في القرآن لا يعني

[٣٠] المرجع السابق، ج١، ص٨٠.
[٣١] المرجع السابق، ج١، ص٨٠.
[٣٢] المرجع السابق، ج١، ص٨٤-٨٥.
[٣٣] المرجع السابق، ج١، ص٨٦.
[٣٤] المرجع السابق، ج١،ص٨٨.
[٣٥] المرجع السابق، ج١، ص٨٨.

عدم المعرفة بالقراءة والكتابة، بل إن لفظ "الأميين" يعني في القرآن: الذين ليس لهم كتاب،[٣٦] وأن لفظ (أمي) نفسه إنما هو لفظ معرَّب لا أصل له في العربية.[٣٧]

وفي هذا المضمار اصطدم الجابري بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨) الذي يدلّ دلالة واضحة على أمية النبي ﷺ، فذهب إلى أن المفسرين قد تخبّطوا في هذه الآية تخبّطاً شديداً، ثم ذهب إلى تفسير (روح البيان) للإتيان بمثال على هذا التخبّط؛ إذ أورد صاحب (روح البيان) قول الشيعة أن رسول الله ﷺ كان يكتب قبل الوحي ثم نُهي عن ذلك بعد الوحي، ثم جاء الجابري بما نقله صاحب (روح البيان) من صاحب (الأسئلة المقحمة)[٣٨] من أن أهل الكتاب كانوا يجدون من صفة النبي ﷺ أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، فأراد الله تحقيق ما وعدهم به.[٣٩] ويفهم من ضم هذين الكلامين أن النبي ﷺ لم يكن قبل البعثة أمياً، فلما بُعث وكان وصفه في التوراة والإنجيل أنه أمي، امتنع عن الكتابة والقراءة، وهذا عجيب جداً.

وبعد أن أحسّ الجابري أنه قد تمّ له ما أراد من نفي الأمية عن النبي ﷺ أخذ يناقش علاقة الأمية بالإعجاز، فذهب إلى أنه لا علاقة للأمية بعدم القدرة على الإتيان بالبلاغة العالية والفصاحة السامية؛ إذ إن شعراء العرب وخطباءهم كانوا يقولون الشعر ويخطبون ارتجالاً من دون إعداد لا قولاً ولا كتابة؛[٤٠] فدلّ ذلك —عنده– على أنه لا علاقة بين الأمية والإعجاز.

---

[٣٦] المرجع السابق، ج١، ص٨١-٨٤.

[٣٧] المرجع السابق، ج١، ص٨٢.

[٣٨] صاحب "كتاب الأسئلة المقحمة في الأجوبة المفحمة" هو أبو القاسم الخزيمي الغراري انظر:
– حقي، إسماعيل. **تفسير روح البيان**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج٥، ص١٧. وقد نقل منه حقي في تفسيره "روح البيان" في أكثر من مائة موضع، ولم يجد الباحث أثراً لكتاب "الأسئلة المقحمة" لا في فهارس الكتب ولا ذُكر عند العلماء اللهم إلا ما أورده حقي عنه في تفسيره.

[٣٩] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص٨٩.

[٤٠] المرجع السابق، ج١، ص٩٣.

والحق أن ما ذكره الجابري فيه نظر؛ إذ إن "الأمية" ليس لفظاً معرّباً وإنما هو لفظ عربي الأصل، وصحيح أن معناه في القرآن –كما لاحظ العلماء– هو الذي لم يُؤتَ كتاباً، إلا أنه من حيث اللغة –بصورة عامة– هو عدم المعرفة العامة بشيء معين، وأمية العرب هي أمية كتابية، فلما جاءهم القرآن زالت عنهم هذه الأمية، قال تعالى ممتناً عليهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)؛ أي جاءهم رسول منهم يزيل عنهم أميتهم الكتابية هذه. أما أمّيّة القراءة والكتابة فقد كانت شائعة بينهم، وكانت القراءة والكتابة فيهم قليلة؛ لذلك كانت فدية بعض الأسرى ببدر أن يعلّموا المسلمين القراءة والكتابة؛ مما يدلّ على أنها كانت فيهم نادرة قليلة.

أما جعل الجابري (ما) في قوله ﷺ (ما أنا بقارئ) استفهامية؛ فهذا قول ضعيف جداً؛ إذ حمل الجابري رواية البخاري الصحيحة على رواية ابن إسحاق الضعيفة، وليس ذلك فحسب، بل إنه في هذه الرواية الضعيفة لم يرجع إلى ابن إسحاق ولا إلى غيره من أصحاب السير، بل رجع إلى بعض شرّاح الحديث، لأن العبارة عند ابن إسحاق وغيره من أصحاب السير "ما أقرأ"، أما عند بعض شراح الحديث الذين نسبوا هذه الرواية إلى ابن إسحاق هي "ماذا أقرأ؟"[٤١] فالعبارة الأولى من الممكن حملها على النفي دون الثانية،[٤٢] ولكن الجابري قد مال إلى الثانية قصداً. أما جعله "ما" في قوله ﷺ: (ما أنا بقارئ) للاستفهام فهذا استدلال ضعيف جداً، وقد ردّه العلماء من قبل، لأن "الباء" لا تدخل على الاستفهام؛ بل إن دخولها فيه شاذ جداً؛ وإنما تدخل في النفي لتأكيده.[٤٣]

---

[٤١] ليس هذا هو اللفظ الذي أورده ابن إسحاق ولا غيره من أصحاب السير وإنما اللفظ الذي أوردوه هو: (ما أقرأ). انظر:

– ابن إسحاق، محمد. **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٧٨م، ص١٠٠. وهو حديث مرسل على كل حال.

[٤٢] الحلبي، علي بن برهان الدين. **السيرة الحلبية**، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ، ج١، ص٣٨٤.

[٤٣] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **الديباج على صحيح مسلم**، تحقيق: أبو إسحق الجويني الأثري، الخبر: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص١٨٤.

أما استدلال الجابري بقوله ﷺ: (هببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً) فاستدلال ضعيف؛ إذ لم يرو هذا الحديث أحد من أهل الحديث ولا جاء في كتبهم، وإنما ورد عند أصحاب السير فحسب، وهو حديث ضعيف جداً وكثير العلل.[٤٤] أما استدلال الجابري بقوله ﷺ: (فجاء جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب) فاستدلال ضعيف أيضاً، وقد جاء الجابري بهذا الحديث ولم يخرّجه ولم يبين درجته في الصحة، وهو حديث مرسل أيضاً،[٤٥] والحديث المرسل ليس حجة عند المحدِّثين؛ إذ لا تقوم الحجة إلا بالأسانيد المتصلة. ولكن حتى وإن صحّ هذا الحديث فرضاً فليس فيه ما يدلّ على معرفة النبي ﷺ بالقراءة والكتابة، إذ إن ما حدث كان في النوم دون اليقظة (جاءني جبريل وأنا نائم) وفي النوم ربما يرى الإنسان أنه يفعل المستحيل؛ فقد يقرأ وقد يطير في الهواء ويمشي في الماء ونحو ذلك، وبالرّغم من كل ذلك إلا أنه ليس في الحديث ما يدلّ على أنه ﷺ قد قرأ وكتب حتى في حال نومه هذا.

أما معرفة خلفاء النبي ﷺ للقراءة والكتابة ومعرفة جدّه المباشر وجدّه الأعلى فليس دليلاً على معرفته هو نفسه ﷺ بذلك، كما أن معرفته بالتجارة لا تعني بحال معرفته بالقراءة والكتابة، فكم من أمي بارع في التجارة التقليدية والسفر إليها دون حاجة إلى قراءة أو كتابة. أما محو رسول الله ﷺ لفظ (رسول الله) من صلح الحديبية فليس فيه دليل على نفي أميته، إذ إنه ﷺ ما محا ذلك إلا بعد أن أُري موضعه من الكتاب، فقد روى البخاري: "عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ لما أراد أن يعتمر أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه أن لا يقيم بها إلا ثلاث ليال ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح ولا يدعو منهم أحداً، قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب؛ فكتب: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله"، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله،

---

[٤٤] الألباني، محمد ناصر الدين. **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، الرياض: دار المعارف، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٠، ص٤٥٥.

[٤٥] الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م، كتاب التفسير، تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق، ج٢، ح٣٩٥٥، ص٥٧٧.

فقال: (أنا والله محمد بن عبد الله وأنا والله رسول الله) قال [أي البراء]: وكان لا يكتب، قال: فقال[أي النبي ﷺ]لعلي: "امح رسول الله "، فقال علي: والله لا أمحاه أبداً، قال: "فأرينه"، قال: فأراه إياه؛ فمحاه النبي ﷺ بيده."[٤٦]

أما استدلال الجابري بأقوال العلماء في نفي الأمية عن النبي ﷺ، فقد سلك فيه مسلكاً شديد الغرابة؛ إذ ضمّ كلامين من تفسير (روح البيان) بينهما ما يقرب نصف صفحة، لتكون النتيجة دلالة على تخبّط العلماء في تفسير قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ).

ثم جاء الجابري بقولين نسبهما إلى القرطبي والألوسي، وهذه النسبة ليست بالدقيقة ولا الصحيحة، لأن القول الذي ذكره القرطبي لم يكن هو رأيه في المسألة، بغض النظر عن موافقته عليه أو رفضه. فالقرطبي قد جاء بكلام شيخه أبي العباس أحمد بن عمر الذي أنكر به تكفير من قال إنه ﷺ قد قرأ وكتب بعد النبوة؛ إذ كان أمياً قبل النبوة، والقرطبي بعد أن جاء بهذا الكلام ردّ على من قال بأن تعلُّم النبي ﷺ للقراءة والكتابة بعد النبوة كان آية خارقة، يقول القرطبي: "كانت تكون آية لا تُنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى، وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أمياً في أمة أمية قامت الحجة وأفحم الجاحدون وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله يده فيكتب وتكون آية، وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً."[٤٧] وبهذا النص يبدو رأي القرطبي واضحاً جداً في هذه المسألة؛ وإذا كان رأي القرطبي موافقاً لرأي شيخه الذي أورده – وأحسبه كذلك – فهو يرفض القول بأن يكون النبي ﷺ قد كتب وقرأ بعد النبوة من جهة كما يرفض تكفير من قال بخلاف قوله من جهة أخرى. أما قبل النبوة فالكل متفقون على أنه كان أمياً ﷺ.

[٤٦] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ، أبواب الجزية والموادعة، باب المصالحة على ثلاثة أيام أو وقت معلوم، ج٣، ح٣٠١٣، ص١١٦٢.

[٤٧] القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٣، ص٣٥٣.

وقد استدلّ الجابري كذلك بقول الألوسي السابق، ثم قطعه عند ذلك الحد الذي ذكره، وبقية كلام الألوسي هي: "وكل ما ورد في الحديث من قوله (كتب) فمعناه أمر بالكتابة، كما يقال: كتب السلطان بكذا لفلان."[٤٨]

أما ما ذهب إليه الجابري من أن المفسرين قد تخبّطوا في تفسير قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨) فهذا غير صحيح على الإطلاق؛ إذ أجمع المفسرون إجماعاً على أنَّ الآية دالة على أُمِّيَّة النبيِّ ﷺ، وإلى ذلك ذهب جميع المفسرين قدماء ومحدثين. وهذه الآية قد دلّت –عندهم– على أنه ﷺ كان أُمِّيّاً لم يقرأ ولم يكتب، وهو بذلك بعيد كل البعد من الشك والريب؛ إذ إنه معروف في قومه –الذين لبث فيهم عمراً– بأنَّه أُمِّيّ، وفي قوله تعالى: (بِيَمِينِكَ) تأكيد لهذه الأُمِّيَّة؛ إذ لا يبقى للمجاز فيها مدخل، وهي كقولك: (رأيت بعيني)، وهؤلاء الذين سماهم في الآية (مبطلين) قد أنكروا النبوة مع ظهور حججها ودلائلها، ولو علموا فيه الكتابة والقراءة لتمسّكوا بذلك وشكّوا وارتابوا أكثر مما هم عليه من الشك الارتياب.

وقد ذهب الجابري إلى أنه لا علاقة بين "الأمية" و"الإعجاز القرآني"، لأن الفصاحة العالية لا علاقة لها بمسألة الأمية هذه، وهذه نتيجة طبيعية لفكر الجابري الذي لا يقرّ بوجه من وجوه الإعجاز إلا ذلك الوجه المتعلّق باللفظ والترتيل. إلا أن العلماء لم يربطوا بين هذا الوجه من الإعجاز والأمية؛ وإنما ربطوا الأمية بالإعجاز المتعلّق بالمعاني والعلوم، فالأمي الذي يأتي بالعلوم التي تفوق علوم العلماء ومعارف العارفين فيه خرق للعادة ومعجزة واضحة جداً، وقد كان النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلّم، ثم جاء بأنباء ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير، ولم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا كان يقرأ بحيث يطَّلع على كتاب فيأخذ منه. ولا يقتصر ذلك الأمر على الأخبار الماضية بل يشمل الأخبار المستقبلية التي جاءت طبق ما أخبر عنها القرآن. وإتيان الأمي بكتاب جامع للعلوم الشريفة والأخبار السالفة فيه خرق واضح للعادة، وفيه دلالة على أن ما أتى به إنما كان من عند الله لا من عند غيره.

[٤٨] الألوسي، محمود أبو الفضل. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج٢١، ص٥.

ثانياً: المعجزات الحسية للنبي ﷺ

ذهب الجابري إلى أن برهان نبوة محمد ﷺ هو القرآن، وليس المعجزات الحسية وخرق العادة ونحوها؛[٤٩] إذ إنَّ أسلوب القرآن في الإقناع عنده يختلف اختلافاً بيّناً عن أسلوب التوراة والإنجيل، فالقرآن قد بنى استدلالاته وفق مقتضيات العقل، أما أسلوب التوراة والإنجيل فهو الاحتكام إلى أمور خارج طور العقل، من مثل قلب العصا حية وفلق البحر وإحياء الموتى، وهي –عنده– قفز على ما جرت به العادة من سنن لا تتخلف،[٥٠] وكما اقتصر عيسى وموسى عليهما السلام –عند الجابري– على المعجزات الحسية وخرق العادة فقد اقتصر محمد ﷺ على الإعجاز اللغوي،[٥١] وتحت عنوان (مَنْ رَفَعَ الأسباب فقد رَفَعَ العقل) يؤيد الجابري ابن رشد في أن إنكار مبدأ السببية يلغي إمكانية معرفة حقيقة أي شيء؛ إذ إننا لا نعرف حقيقة الأشياء إلا بمعرفة أسبابها، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل. وبناء على ذلك ذهب الجابري إلى أنه لا يمكن إطلاقاً التضحية بالسببية وترك المجال للمعجزة.[٥٢]

وقد عمد الجابري إلى القرآن لإثبات رأيه في أن النبي ﷺ لم تكن له من معجزة سوى القرآن نفسه، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء:٩٣) الذي يدلّ –عنده– على أن البشر لا يمكنهم الإتيان بالأمور الخارقة من ارتقاء في السماء ونحوه، واستدلّ كذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩) الذي يدلّ –عنده– على أن المانع من إرسال المعجزات المؤيدة لمحمد ﷺ أن الأولين كذّبوا بهذه المعجزات. واستدلّ الجابري أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥١) وهي تدلّ –عنده– على أن محمداً ﷺ ليس له من معجزة قط إلا القرآن.

---

[٤٩] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٤٤-١٤٦.

[٥٠] المرجع السابق، ج١، ص٢٢٤.

[٥١] المرجع السابق، ج١، ص١٩٧.

[٥٢] المرجع السابق، ج١، ص١٤٢.

وبهذا المدخل تناول الجابري المعجزات التي وقعت للنبي ﷺ، نحو معجزة انشقاق القمر والإسراء والمعراج. والجابري لم ينف هذه المعجزات نفياً كلياً مطلقاً، وإنما مال إلى تأويلها حتى تخرج من كونها معجزات، وتوافق ما ذكر من الحفاظ على نظام العالم وعدم خرق سننه ونواميسه، وإن كان هذا التأويل بغير المجاز. ولأجل ذلك أشاد الجابري بموقف الكندي في ميله إلى التأويل.[٥٣] والتأويل عند الجابري لا يعني اختراق المجال التداولي الذي نزل فيه القرآن؛ إذ إن الحقيقة الدينية لا تناقض العقل؛ غير أنها في بعض الأحيان – عنده– لا يمكن نيلها من ظاهر النص، بل قد يستلزم الأمر اللجوء إلى التأويل.

ويُلاحظ أن الجابري قد أتى من القرآن بالمعجزات التي يمكن تأويلها نحو انشقاق القمر والإسراء والمعراج، وإن كان هذا التأويل بأضعف الأقوال الموجودة في التفاسير، ولكن الجابري تزاور بصورة واضحة وضرب صفحاً عن تلك المعجزات التي ليس للتأويل فيها مدخل، نحو قتال الملائكة ببدر وعصمة النبي ﷺ من الناس، ونحو ذلك مما فيه خرق ظاهر للعادة. وإذا كان قد ثبت أن النبي ﷺ قد شارك الأنبياء السابقين في وقوع المعجزات الحسية على يديه، كما دلّ على ذلك صريح القرآن وصحيح السنة، إلاّ أنه (ﷺ) انفرد بمعجزة القرآن الباقية على وجه الدهر عن جميع الأنبياء والمرسلين.

أما الآيات التي استدلّ بها الجابري فليس المعنى فيها كما فهم؛ ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ذهب الجابري إلى أن المعنى هو: أن الإنسان لا يستطيع الصعود إلى السماء. وهنا يتجاهل الجابري بقية الأسئلة التي سألتها قريش للنبي ﷺ، وهي أن يكون له بيت من زخرف أو حديقة من نخيل وعنب. فهذه الآية لا تعني بحال أن الإنسان ليس في مقدوره فعل الأشياء التي طلبوها، خاصة وأنه قد ذُكر في مواضع أخرى من القرآن معجزات أخرى أكبر منها، ولكن المعنى هو: إن الرسول البشري إنما هو عبد مأمور، وليس له أن يتحكم على الله في إنزال الآيات؛ إذ ليس لأحد أن يتقدّم فيقترح عليه ما يشاء من آيات ومعجزات، فالله هو الذي ينزّل الآيات باختياره دون أن يقترح عليه البشر ما يشاؤون؛ فهو الفعّال لما يريد، وكأنما قال النبي ﷺ لقريش

[٥٣] المرجع السابق، ج١، ص١٢٥.

حين اقترحوا عليه ذلك: "هذا سلطان الله وملكوته إن شاء أجابكم وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول أبلغكم رسالته."[٥٤] وبهذا يبدو تفسير الجابري للآية بعيداً عن المراد منها.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ (الإسراء: ٥٩) فقد ذهب الجابري إلى أن المانع من إرسال المعجزات المؤيدة لمحمد ﷺ أن الأولين قد كذّبوا بمثل هذه المعجزات؛ أي أن الله لن يرسل إلى النبي ﷺ معجزات إطلاقاً لهذا السبب، وهذا غير صحيح؛ إذ إنَّ الله تعالى قد أجرى المعجزات على يديّ النبي ﷺ كما هو ثابت. ومعنى الآية يبدو واضحاً – وهو خلاف ما ذهب إليه الجابري– إذا تمّ فهمه عبر السياق وسبب النزول، ويبدو من السياق أنَّ إنزال المعجزات التي تُطلب بمثابة إنذار بالدمار إذا لم يؤمنوا، وقريش قد سألت النبي ﷺ آيات معينة كما هو مذكور في السياق، والمانع من إرسالها هو تكذيب قريش الذي يعقبه الهلاك؛ إذ جرت سنة الله في الأولين أنه ما إن يرسل الله من آية لقوم يطلبونها فيكذبوا بها إلا أهلكهم، والله لا يريد إهلاك قريش لطلب النبي ﷺ، فقد روى الحاكم والنسائي وأحمد: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا؛ فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أُهلك من قبلهم، قال: لا بل أستأني بهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.[٥٥] وقد علم النبي ﷺ حتمية العذاب إذا أُرسلت هذه الآيات التي

---

[٥٤] ابن عادل، عمر بن علي. **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج١٢، ص٣٨٩. انظر أيضاً:

– ابن كثير، إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٩٩٩م، ج٥، ص١٢١.

– ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون، ط١، ١٩٩٧م، ج٧، ص٢١٢.

[٥٥] الحاكم. **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل، ج٢، ح٣٣٧٩، ص٣٩٤. انظر أيضاً:

– النسائي، أحمد بن على بن شعيب. **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، كتاب التفسير، سورة الإسراء، ج٦، ح١١٢٩٠، ص٣٨٠.

طلبوها، لعلمه بشدة عناد قومه كما ذكر الله في آيات كثيرة؛ فقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤-١٥)، وقال: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧)؛ ولهذا فإن معنى الآية ليس هو المنع من إرسال الآيات مطلقاً – كما فهم الجابري- وإنما المنع من إرسال الآيات التي طلبوها، وهي التي ذكرت في الآية والحديث، وإلا فقد ذكر الله معجزات عظيمة أخرى كما سبق، ولهذا يقول ابن كثير عن معنى هذه الآية: "إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة."[٥٦] وبهذا يكون معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المطلوبة إلا أن الأولين قد كذبوا بالآيات التي طلبوها فأُهلكوا كما اقتضت سنة الله تعالى في خلقه.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (العنكبوت:٥١) فليس المعنى فيه كما فهم الجابري من أنه ليس للنبي ﷺ من معجزة أخرى سوى القرآن، وإنما المعنى أنه كفى بالقرآن دليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ؛ أي لو لم يكن له إلا القرآن لكفاه وحده، بالرغم من أن له معجزات أخرى غيره، ولو هُمْ تأملوا هذا القرآن لكفاهم عن طلب أي آية أو علامة أخرى؛ إذ إنه ظاهر التفرّد، بيّن التميز، دالّ على أنه من عند الله. يقول ابن عادل: "(أولم يكفهم) عبارة تنبي عن كون القرآن آية فوق الكفاية"[٥٧] وبضم هذه الآية للآية التي قبلها في السياق: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨) يزداد ذلك المعنى وضوحاً أيضاً، فيكون: أولم يكفهم إنزال هذا القرآن الناطق بالحق والنبي المنزل إليه أمي لا يقرأ ولا يكتب. ولهذا يقول ابن كثير: "ومعنى ذلك: أولم يكفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت أمي،"[٥٨] وفي قوله: (يتلى عليهم) إشارة إلى بقاء هذا القرآن (المعجزة الخالدة)، وهو غير المعجزات الحسية؛ إذ إن المعجزات الحسية تنقرض بموت

– ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ج١، ح٢٣٣٣، ص٢٥٨.

[٥٦] ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٥٧.

[٥٧] ابن عادل. **اللباب في علوم الكتاب**، مرجع سابق، ج١٥، ص٣٦٤.

[٥٨] ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج١، ص٦٠.

الأنبياء الذين أُجريت على أيديهم وبانقراض من شاهدوها من الناس، ومحمد ﷺ قد شارك الأنبياء في إجراء المعجزات الحسية على يديه من جانب، وانفرد عنهم بمعجزة القرآن الخالدة التي تتلى على الناس على وجه الدهر من جانب آخر.

أما معجزات النبي (ﷺ) التي وردت في السنة فقد نفاها الجابري نفياً قاطعاً، وذكر أن الأحاديث التي وردت فيها إنَّما هي أخبار آحاد، وذهب إلى أنَّ أهل الحديث قد تساهلوا في هذه الأحاديث، لأنها ليست أحاديث أحكام؛ إذ كان أهل الحديث –كما يقول– يتساهلون في أحاديث الثواب والعقاب وفضائل الأعمال.[٥٩]

وصحيح أنَّ الأحاديث التي وردت فيها هذه المعجزات ليست أحاديث أحكام، ولكنها في الوقت نفسه ليست أحاديث فضائل أعمال وثواب وعقاب خلافاً لما ذكر، وإنما تتعلّق بإثبات النبوة والدين نفسه.

وإذا كان الجابري قد نفى المعجزات التي وردت في الأحاديث، فهو لم ينف المعجزات التي ذُكرت في القرآن نحو انشقاق القمر والإسراء والمعراج، بل ذهب إلى تأويلها حتى يخرجها عن إطار المعجزة؛ وتفصيل ذلك كالآتي:

١. انشقاق القمر:

ذهب الجابري في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) إلى أن القرآن لا يحتاج إلى معجزة من خارجه تؤيد صدقه؛ إذ ليس من اختصاص النبي ﷺ الإتيان بمعجزات خارقة للعادة، فالله تعالى قد أغلق باب المطالبة بأشياء خارقة للعادة بصورة نهائية، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٦٠] (العنكبوت:٥١) وهذه الآية التي ذُكر فيها (انشقاق القمر) ذكر المفسرون فيها بعض الآراء الضعيفة وردّوها؛ إذ قيل: إن القمر سينشق يوم القيامة، وقيل: إن معنى انشقاق القمر: اتضاح الأمر وظهوره؛ لأن العرب تضرب بالقمر مثلاً في ما وضح، وقيل: إن ذلك كان خسوفاً حلّ بالقمر في زمان النبي ﷺ، وقد استبعد الجابري كل الأقوال ورجّح

[٥٩] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٠.

[٦٠] المرجع السابق، ج١، ص١٨٧-١٨٩.

كون الذي حلّ بالقمر "خسوفاً"، وظاهرة طبيعية عادية.[٦١] وإذا كان انشقاق القمر عند الجابري خسوفاً طبيعياً فقد ذهب حسن حنفي إلى أن اقتران بعض المعجزات بدعوات الأنبياء من قبيل الاتفاق وبمحض المصادفات.[٦٢]

ولكن أكثر العلماء والمفسرين أكّدوا على أن القمر قد انشق انشقاقاً حقيقياً في زمان النبي ﷺ، وقد دلّ صريح القرآن وصحيح السنة على ذلك، فالآية التي تلي تلك الآية التي تتناول الانشقاق مباشرة تؤكد أن الكافرين قد رأوا هذه الحادثة رأي العين ولم ينفوها، بل زعموا أنها ضرب من ضروب السحر المستمرّة، حتى لا يعترفوا لمحمد ﷺ بالنبوّة وبما أتى به من معجزات، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) ثم قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢). وقد رأى الصحابة ذلك، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذا انفلق القمر فلقتين؛ فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: أشهدوا،"[٦٣] ويقول ابن كثير: "قد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول الله ﷺ، وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة."[٦٤]

وقد مال الجابري إلى رأي ضعيف كما سبق؛ إذ ذهب إلى أن معنى "انشقاق القمر"؛ أي خسوفه، وقد استدلّ الجابري بقول أورده الإمام ابن عاشور وهو مرور جسم سماوي حجب ضوء الشمس عن وجه القمر،[٦٥] كما استدلّ بحديث أورده الطبراني عن

---

[٦١] المرجع السابق، ج١، ص١٨٧-١٨٩.

[٦٢] حنفي. **من العقيدة إلى الثورة**، مرجع سابق، ج٤، ص٨٠.

[٦٣] مسلم، بن الحجاج القشيري. **صحيح مسلم**، بيروت: دار الجيل، د.ت، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، ج٤، ح٢٨٠٠، ص٢١٥٩. انظر أيضاً:

- ابن حنبل. **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق. مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، ج١، ح٤٢٧٠، ص٤٤٧.

- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح "سنن الترمذي"**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب سورة القمر، ج٤، ح٢١٨٢، ص٤٧٧.

[٦٤] ابن كثير، إسماعيل بن عمر. **البداية و النهاية**، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٦، ص٨٢.

[٦٥] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٧، ص١٦٩.

ابن عباس قال: "كُسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سُحر القمر؛ فنزلت اقتربت الساعة وانشق القمر."[٦٦] والحق أن ابن عاشور الذي أخذ منه الجابري فكرة (الخسوف) -التي لم يقل بها أحد من المفسرين- إنما كان يقول بخلافها؛ إذ أورد في تفسيره (التحرير والتنوير) الأدلة التي تؤكد أن القمر قد انشق حقيقة؛ بل وحدّد تاريخ هذا الانشقاق بأنه كان سنة خمس قبل الهجرة،[٦٧] ثم قال: "إن كثرة رواة هذا الخبر تدلّ على أنه كان خبراً مستفيضاً."[٦٨] ثم ناقش ابن عاشور كل الآراء، وعرض لكون أهل الآفاق قد رأوا هذه الظاهرة أم لا؟ ثم بعد ذلك ذكر مسألة (الخسوف) وقال إننا أوردناها "مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالاً لجحد الملحدين."[٦٩]

والحق أن أهل الآفاق قد رأوا هذه الظاهرة، فبعد هذا الانشقاق قال الكفار: لئن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا، فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.[٧٠] وقد سجّلت بعض الكتب القديمة لمؤرخي الهند هذا الانشقاق. وفي المقالة الحادية عشرة من تاريخ "فرشته" أن أهل "مليبار" من إقليم الهند رأوه، وقد أُرّخ بهذا الانشقاق لبناء بعض الأبنية في بعض بلاد الهند.[٧١]

أما حديث الطبراني فلم يهتم به المفسرون؛ لأن الأدلة الثابتة بخلافه، وإنما أورده الألوسي في روح المعاني، وابن كثير في البداية والنهاية، والسيوطي في الدر المنثور للرد عليه، فقال ابن كثير عنه: "إن سياق الخبر غريب،"[٧٢] وذكر الألوسي أن هذا الخبر غريب، ثم ذكر كيفية وقوع هذه الظاهرة فقال: "إن القمر لم تفارق قطعته السماء بعد

---

[٦٦] الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ج١١، ص٢٥٠.

[٦٧] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٧، ص١٦٦.

[٦٨] المرجع السابق، ج٢٧، ص١٦٧.

[٦٩] المرجع السابق، ج٢٧، ص١٦٩.

[٧٠] الحلبي، علي بن برهان الدين. **السيرة الحلبية**، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج١، ص٤٩٤.

[٧١] ابن كثير. **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٠.

[٧٢] المرجع السابق، ج٦، ص٨٤.

انشقاقه بل بقيتا متباعدتين تباعداً ما لحظه، ثم اتصلتا."[٧٣] وهذا الوصف ينفي أن تكون إحدى فلقتي القمر قد اختفت، سواء كان ذلك بخسوف أو غيره، وقد جاء في القرآن والسنة أن الانشقاق قد حدث فعلاً، وقد أكّد العلم الحديث ذلك.

٢. معجزة الإسراء:

ذكر الجابري أن الإسراء بالنبي ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنما كان بروحه ﷺ دون جسده، وقد كان ذلك "رؤيا" في المنام؛ وهذا ليس خرقاً للعادة ولا فيه مسّ بسنن الكون. وقد نسب الجابري هذا القول إلى الطبري،[٧٤] واستدلّ الجابري على أن الإسراء كان رؤيا منامية بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)[٧٥] وقول الجابري هذا لم يكن قولاً جديداً، بل كان رأياً ضعيفاً ناقشه العلماء وأبطلوه، وقد عقد القاضي عياض فصلاً في كتابه (الشفا) للرد على من قال بذلك.[٧٦]

ولو صحّ قول الجابري لما كان الإسراء حادثة عظيمة، ولما ارتدّ بعض الناس عن الإسلام وافتتنوا، ولما سُمي الصديق صديقاً، ولهذا يقول القرطبي: "ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما قالت أم هاني للنبي ﷺ: لا تحدِّث الناس فيكذبوك، ولا فُضِّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريش التشنيع والتكذيب، وقد كذّبته قريش فيما أخبر به حتى ارتدّ أقوام كانوا قد آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يُستنكَر،"[٧٧] ويقول ابن كثير: "ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً."[٧٨] ولهذا فإن سياق الآية التي استدل بها الجابري نفسها يكذّب ما ذهب إليه.[٧٩]

---

[٧٣] الألوسي. **روح المعاني**، مرجع سابق، ج٢٧، ص٧٥.

[٧٤] الجابري. **فهم القرآن الحكيم**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٩.

[٧٥] المرجع السابق، ج١، ص١٩٠.

[٧٦] القاضي عياض. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص١٩١.

[٧٧] القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٠، ص٢٠٩.

[٧٨] ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٣.

[٧٩] لما اصطدم الجابري بقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠) في سياق الآية التي استدلّ بها نفسها، اضطرب فقال إن في العبارة تقديم وتأخير وهي كالآتي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

أما ما نسبه الجابري إلى الإمام الطبري من أن الإسراء إنما كان في المنام بالروح لا بالجسد، فليس صحيحاً على الإطلاق؛ إذ لم يكن رأي الطبري في هذه المسألة كما ذكر، وإنما أورد الطبري قول من قالوا بذلك وردّ عليه بشدة؛ فقال: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلاً على نبوّته، ولا حجة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه؛ إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟! وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه: "أسرى بعبده"، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدّى ما قال الله إلى غيره. والأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق؛ إذ كانت الدوابّ لا تحمل إلا الأجسام."[٨٠] وقد أجمع المفسرون على أن "الإسراء" إنما كان بالروح والجسد معاً؛ لأن لفظ (بعبده) في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ١) تدلّ على مجموع الروح والجسد.

أما استدلال الجابري بكلمة "الرؤيا" في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠) فاستدلال ضعيف؛ لأن الرؤيا في القرآن إما رؤيا منامية أو رؤيا عين، وقد أجمع المفسرون على أن الرؤيا في هذه الآية إنما كانت رؤيا عين.

(الإسراء:٦٠) ثم ذكر قول من قال إنها رؤيا بصرية وقول من قال إنها رؤيا قلبية، ثم قال: "ولكل أحاديث وآثار يحتج بها" وأتى أخيراً بأمر الفتنة التي وقعت للناس، ثم قال أما معاصرو النبي ﷺ من المشركين فقد استهزؤوا بذلك، كما لم يستسغها بعض الذين كانوا قد أسلموا حديثاً." انظر:

– الجابري. **فهم القرآن الحكيم**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٤.

[٨٠] الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م، ج١٧، ص٣٥٠-٣٥١.

٣. معجزة المعراج:

بعد أن أُسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى عُرج به إلى السماء، إلا أنَّ الجابري قد ذهب إلى أن معراج النبي ﷺ إنما كان كالإسراء؛ إذ إن كليهما قد حدثا في رؤية منامية وليس حال اليقظة؛[٨١] لأنَّ الإنسان لا يمكنه الارتقاء إلى السماء، ويذكر الجابري أنَّ النبي ﷺ لما طلب المشركون منه أن (يرقى في السماء) قال له الله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣) مما يدلّ على أن البشر لا يمكنهم الصعود إلى السماء إطلاقاً.[٨٢]

لكن استشهاد الجابري بالآية فيه نظر؛ إذ إن المشركين في السياق نفسه قد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء: ٩٣) مما يدلّ على النبي ﷺ قد أخبرهم أنه رُقي به إلى السماء فلم يصدقوه؛[٨٣] فقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣) لا تعني -بأي حال من الأحوال- أن البشر لا يستطيعون الصعود إلى السماء كما سبق، بل تعني أن المشركين قد قالوا لرسول الله ﷺ: إننا لن نؤمن لمعراجك في السماء الذي ذكرته حتى تأتي من هذه السماء التي عرجت إليها بعلامة تدلّ على معراجك إليها، فطلبهم لم يكن متعلّقاً بالصعود إلى السماء وحده؛ إذ إنَّ هذا قد حدث فعلاً، وإنما يتعلّق هذا الطلب بالإتيان بكتاب من السماء عند الصعود إليها. يقول أبو السعود إنَّ المعنى هو: "لن نؤمن لأجل رقيك وحده أو لن نصدّق رقيّك فيها

---

[٨١] لم ينفرد الجابري بالقول بأن المعراج كان في النوم؛ بل من المتخصصين في علوم الشريعة من وافقه في أن المعراج كان في النوم، وذلك بخلاف الإسراء، فذكر الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني -بعد دراسته للروايات دراسة ممحصة متعمقة من جهة الأسانيد ومن جهة المتون- أن المعراج لم يكن في اليقظة كالإسراء؛ إذ كان بالروح فقط أثناء النوم، توطئةً وتمهيداً لرحلة الإسراء بالجسد والروح معاً، وذكر أن كثيراً من الروايات تؤيد ذلك، وقال إن القول بذلك وجه مشهور عند أهل العلم، وهو جامع بين الاختلافات المتباينة في هذه المسألة. انظر:
- طرهوني، محمد بن رزق. **الإسراء والمعراج الرواية المتكاملة الصحيحة الوحيدة**. الإحساء: دار فواز للنشر والتوزيع، د.ت، ص٣١.

[٨٢] الجابري. **مدخل إلى القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٠.

[٨٣] من الممكن أيضاً أن يكون لفظ "رقيك" في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ (الإسراء: ٩٣) مقصود به المعراج الذي طلبوه.

حتى تنزل كتاباً فيه تصديقك نقرؤه نحن من غير أن يُتلقى من قبلك،"[٨٤] فالآية التي نفى بها الجابري المعراج إنما هي -عند التأمل- تثبته، والأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك كثيرة، كما تثبت هذا المعراج آيات سورة النجم التي تُبين أنه صُعد به ﷺ إلى السماء ورأى ما رآه حقيقة ويقظة لا في المنام ولا بالروح وحدها، قال تعالى: ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٧-١٨) فذكر البصر ورؤيته في هذا المعراج، والبصر من آلات الجسد لا الروح.[٨٥]

خاتمة:

إن النتائج الصحيحة المقبولة -في أي بحث من البحوث العلمية- إنما هي مشروطة بالمنهج الصحيح والطريقة السليمة، وإلا جاءت هذه النتائج غير صحيحة ولا مقبولة؛ إذ إنها لم تستند ابتداء إلى أصل سليم، ولا يستقيم الظل والعود أعوج. وعند البحث في القرآن لا بدّ من شروط تُتبع، ومناهج تُنتهج، وضوابط تُراعى، فما أعطى القرآن حينئذ من معانٍ يجب اتباعه والأخذ به، ولا يمكن إطلاقاً اعتماد معانٍ خارج القرآن ثم محاولة حمل القرآن عليها دون النظر إلى ما يستحقه النص من الدلالة والبيان، وإلا كان هذا ليّاً لأعناق النصوص حتى توافق ما عند المستدلِّ بها. ومعلوم أنه لا عبرة البتة بفهم السامع للقرآن إذا اتضحت مخالفته لمراد الله ومقاصده، وإنما تكتسب اجتهادات البشر وفهومهم قيمتها وتحظى بالقبول بقدر نهوض الأدلة التي تؤكد مطابقتها لمراد الله تعالى ومقاصده. ولهذا يجب أخذ الأدلة القرآنية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها؛ إذ إن القرآن متبوع وليس بتابع، قال رسول الله ﷺ: (اتَّبِعُوا هذا الْقُرْآنَ، وَلا يَتَّبِعْكُمَ الْقُرْآنُ ، فَإِنَّ مَنْ يَتَّبِعَ الْقُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ اتَّبعهُ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ)؛[٨٦]

---

[٨٤] أبو السعود، أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي. **تفسير أبي السعود (أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، تحقيق عبد الله أحمد عطا، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت، ج٣، ص٤٨٢.

[٨٥] ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤.

[٨٦] الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ، كتاب فضائل القرآن، باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه، ح٣٣٢٨، ج٢، ص٥٢٦.

ولهذا ينبغي –عند استنباط المعاني– النظر إلى القرآن كله بوصفه وحدة بنائية، والنظر إلى سياقاته كما ينبغي النظر في السنة الصحيحة ولغة العرب التي بها أنزل، وإلا فإن اتخاذ موقف "عقلاني" معيَّن، والسعي وراء الأدلة الضعيفة والمحوّرة لتأييده، وأخذ معطيات التراث بصورة انتقائية لتقويته هو منهج ليس بالصحيح ولا المقبول لأنّ النتائج التي تنشأ عنه لا بد أن تكون متكلّفة وبعيدة عن الحق والصواب.

وإذا كان أصحاب القراءات الحداثية قد اتخذوا "العقلانية" مرتكزاً، والأسباب المادية وقوانين الكون والطبيعة قاعدة، ولم ينظروا إلى المعطيات والمعاني القرآنية إلا من خلال ذلك، فإنهم قد نظروا إلى المعجزة القرآنية من هذا المنظور أيضاً، وادّعوا أن هذه المعجزات بتفسيراتها القديمة قد خالفت العقل بإلغائها لقانون السببية، وإبطالها لسنن الكون ونواميسه، ولهذا لم تعد مقبولة ويجب إعادة تفسيرها بصورة مادية طبيعية في ضوء التصورات الحديثة، ولهذا تعسّف الجابري وأبعد النجعة في إيجاد أدلة شرعية تؤيد تصوراته في المعجزات، إلا أن هذه المعجزات –وإن خرقت سنن الكون وقوانين الطبيعة– ليست مخالفة لأحكام العقل ولا مناقضة لها، لأن التلازم القائم في الطبيعة بين الأسباب والمسببات إنما مصدره العادة والحس أو المشاهدة؛ وليس مصدره حكماً من أحكام العقل بحال؛ أي إن هذا التلازم ليس من جنس التلازم الموجود بين المقدمات والنتائج في القضايا العقلية أو المسائل الرياضية، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات والمتصرف فيها، وليس ببعيد على الله أن يخرق قوانين الكون ويبطل سنن الطبيعة أو يبدل سبباً فيها بسبب آخر؛ ليكون ذلك دليلاً على النبوة.